زاوية

هل أتاك نبأ المحلل السياسي الجديد؟

يوسف ابو الفوز

لايمكن إلا الشعور بالأسى والحزن، من واقع شريحة، تبدو كبيرة، من المثقفين العرب، كتابا ومحامين، ومن سار بنهجهم ومواقفهم التي تجري بعيدا عن منطق رسالة المثقف الإنسانية، الذي يفترض ان يقف الى جانب حقوق الإنسان العامة وحق الشعوب في حريتها ونضالها ضد الظلم والطغيان. وهكذا وارتباطا بذلك، نجد ان واقع الإعلام العربي يثير ليس الأسى وحده بل الغضب، فهو يوما بعد اخر يمعن في مغالطاته وتخبطه وتخلفه، خصوصا في مواقفه التي نلمسها كل يوم، من سقوط النظام الديكتاتوري الدموي في العراق، ومحنة الشعب العراقي في سعيه للخلاص من الاحتلال وتصفية مخلفات السنين الطويلة والثقيلة لحكم حزب البعث العراقي، والدمار الذي خلفه هذا النظام المتخلف في بنية المجتمع العراقي على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ابناء الشعب العراقي، الذين ولاكثر من ربع قرن، ابتلوا بأسوأ نظام ديكتاتوري عرفته شعوب بلدان العالم العربي، ولاسيما المواطن الذي كان ضحية مباشرة للسياسات القمعية للنظام الديكتاتوري القبور، وبأي شكل كان، يفهمون تماما محنة المثقفين العرب وحيرة الإعلام العربي واسبابها أيضا، فشريحة واسعة من هؤلاء المثقفين، ونسبة كبيرة من المؤسسات الإعلامية والثقافية العربية، ارتبطت، بهذا الشكل أو ذاك، بالنظام الديكتاتوري القبور ومؤسساته، سواء كان ارتباطا له علاقة بالتمويل - السري والعلني - والدعم السياسي، أو بأحسن الأحوال علاقة ذات أبعاد فكرية. وهكذا كان سقوط النظام الديكتاتوري، الدموي، الشمولي، وبالتالي سقوط المجرم الديكتاتور صدام حسين، رأس الأفعى، وبذلك الشكل المهين والذليل، إشارة إلى سقوط واحدة من ابرز مدارس الفكر القومي العربي، إلا وهي مدرسة عفالقة العراق، ذات الأثواب القبلية والعدوانية والفاشية. وعليه، وفور اتداخي الاخوة (القوميون)، وعلى إيقاع صرخة (أي ... أي يا بني قومي)، للعمل بشكل محموم وكثيف للتشفي من الشعب العراقي في محنته ومصائبه، وللردح على أطلال نظام حليفهم وفارسهم الندحر والهزوم، الذي استسلم بجبن حتى دون ان يطلق طلقة خلب باتجاه من القوا القبض عليه كالجرذ في جحره، وراح (القوميون) يطبلون ويزغردون للعمليات الإرهابية، التي ينفذها إرهابيون وصداميون يخشون فقص المحاكم وساعة الحساب بالتعاون مع حلفائهم من القوى المتطرفة الظلامية والإرهابية وتستهدف عملياتهم التخريبية أبناء الشعب العراقي ومؤسسات الدولة العراقية، منتشين بجوقة التصفيق القومجية التي تصف أعمالهم بأنها أعمال (مقاومة وطنية)، وما هي إلا لمسة سامة في درب مسيرة الشعب العراقي وهو يرسم بسقوط النظام الديكتاتوري القبور أفقا لانتقال آمن وعاجل نسبيا من عهد الدكتاتورية البائدة إلى عراق الديمقراطية والفيدرالية ودولة القانون واحترام الإنسان وحقوقه. وإذا يفهم المواطن العراقي، النابه والمتأمل بهموم تركة النظام القبور، كل هذا ومايجري، وبتفاصيله، فهو أيضا يشعر بالغضب والأسى من أولئك الطبالين من أبناء جلدته، من ابناء العراق، الذين سبق لهم ان بحت أصواتهم، ولسنين طويلة، في تمجيد الطاغية ونظامه، وبمجرد سقوطه الذل والسريع سارعوا الى نزع قمصان عفالقة البعث بألوانها المختلفة، وارتدوا بمهارة عالية قمصان الديمقراطية والتعددية والاستقلال الوطني، ولكنهم واصلوا الردح مع رفاقهم (القوميين) العرب على ذات النغمة وذات الإيقاع، دون ان يلتفتوا، ولو نزر اللرماد في العيون، الى تلال عظام العراقيين في المقابر الجماعية، التي تنتشر على كل ارض العراق، محولة اياه الى اكبر مقبرة جماعية في الشرق الأوسط.

كل هؤلاء من التلونيين كالحرباء، وبصلافة لا نظير لها، نزعوا بسهولة، ودون خجل من ماضيهم وافعالهم، قمصان نظام العفالقة القبور، وتناسوا كل المقالات التي دبجوها بالتغزل وحمد السفاح القبور ونظامه، تناسوا مقالاتهم التي لو مدت على الأرض لكانت سجادة عار خرقاء تؤدي بهم إلى باب جهنم، ان كانوا يخافون الرب حقا. وهكذا تفتح صفحات الانترنيت فتقرأ لغوا يخطله (حنقبازية) لا يعرفون الفرق بين الضاد والظاء، وتجدهم يلطخون صفحات الانترنيت بلغو وحكي مقاهي، ينشرون الإشاعات ويوزعون التهم والشتائم على من يشاؤون، ويغالطون ويتشفون بمحنة الشعب العراقي تحت ستار الوطنية وحرية الرأي والرأي الاخر. والى جانب كل هذا، وبصلافة تجد ان كل واحد منهم يخط تحت اسمه وبحروف بارزة صفة «محلل سياسي».

وتفتح التلفزيون فيطل عليك، من شاشة تلك الفضائيات السمومة التي احتضنت، وبسياسة مشبوهة، رموزا من أعوان النظام القبور، نقول، يطل عليك وجه كريه، كان لفترة طبالا وساعيا، وغير ذلك، في مؤسسات النظام القبور وتحت امرة رموز كريهة في النظام القبور، ونبح بتقاريره للمخابراتية خيرة أبناء الشعب العراقي، منتهكا حرمة مهنة الكتابة، ونجد مذيع القناة التلفزيونية، التي تواصل التشفي بمصائب الشعب العراقي، يقدم لنا هذا الانتهازي المتلون بأنه «محلل سياسي»!

وإذ ندرك انه مثلما يردد الجميع بأن الرياضة هي فن وأخلاق، فالصحافة أيضا علم وأخلاق، وقد يمتلك أحدهم أدوات حرفة الكتابة، لكنه يفتقد إلى الأخلاق المهنية والاجتماعية، وعندها تعم الطامة، مثلما نرى حولنا. ولا غرابة ان نرى كل هذا يجري تحت مسميات الديمقراطية في العمل الإعلامي. آذن! لا غرابة ان تنجح غدا أحدى الفضائيات العربية، وبشكل ما، في تحقيق لقاء مع الديكتاتور المجرم المخلوع صدام حسين، ليحدثنا عن حقوق الإنسان وتقدمه لنا كمحلل سياسي أو ناشط في مجال حقوق الإنسان.

معاقبة قناتي (الجزيرة) و(العربية) ومستقبل حرية الإعلام في العراق

حيدر سعيد

> اقدم مجلس الحكم الانتقالي، من جديد، على معاقبة قناة (الجزيرة) الفضائية. وكان قد سمح، لتوه، لقناة (العربية) بان تعاود عملها في العراق بعد حوالي الشهرين على عقاب آخر، اغلق فيه المجلس مكاتب القناة في بغداد.
> ولن تنتهي -على ما يبدو- يد العقاب التي يلوح بها المجلس لهاتين القناتين -وهما الفضائيتان العربيتان الاكثر جماهيرية. فقد طبع علاقة المجلس بهما توتر مستمر: شد وتوجس وغضب وعتاب وعقاب.

ولكن، يبدو ان (يد العقاب) هذه هي كناية عن عقاب آخر- يريده المجلس ولا يتمكن منه- وهو عقاب الرأي العام العربي بأسره الذي بدا للمجلس انه ناصر نظام صدام وتعاطف معه ودافع عنه. والمجلس ينظر الى هاتين القناتين بانهما تمثلان الرأي العام العربي وموقفه من القضية العراقية.

وبالفعل، ثمة ملابسة صميمة وعلاقة جدلية بين الرأي العام العربي وهاتين القناتين، فكادرهما يتشكل من الاعلاميين العرب، وهؤلاء الاعلاميون تشكل وعيهم في فضاء القيم والسلّمات والقضايا الكبرى التي تسود الشعوب العربية. والعرب آمنوا بـ(كارزما) صدام حسين، التي شكلتها معارضته للغرب وانه الزعيم العربي الوحيد الذي قصف اسرائيل بالصواريخ، في مجتمعات تصبح فيها مناهضة الغرب اشبه بـ(عصاب جماعي) ويصبح اي زعيم يعادي الغرب ويناهضه زعيماً (كارزمياً). وهكذا، يكون الرأي العام العربي حاضراً في هاتين القناتين من خلال كادرهما من الاعلاميين العرب، وهما تعملان -بالمقابل- على إعادة انتاج الرأي العام العربي -بقيمه ومسلماته وقضاياه الكبرى-، ولكن بلغة معقلنة وذات طابع فكري، تعزز تجاهاته وتجعله واثقاً من قناعاته.

لقد تاجرت قناة (الجزيرة) طوال التسعينيات -ولم تكن (العربية) متأسسة بعد- بالعذاب المر الذي عاناه العراقيون من الحصار، لتكشف عن الوجه القبيح للغرب (المجرم)، الذي ارتكب هذه الجريمة، في حين لم تنال مجرائم (البطل القومي) -الذي ناهض الغرب وقصف إسرائيل بالصواريخ- بحق شعبه، من إبادة جماعية وقمع حرية التعبير وتهجير ونفي. وهاتان القناتان هما اللتان خلقتا اسطورة (المقاومة العراقية في الجنوب) في الاسبوعين الاولين من الحرب، حيث يمكن لهذه (المقاومة) ان تكون ثأراً او انتصاراً للذات العربية، المهزومة دائماً، من الغرب، (المجرم، الاستعماري، الامبريالي، المتوحش،...)، وهاتان القناتان هما اللتان كانتا مسؤولتين عن الاحباط العام الذي اصاب الجماهير العربية بعد السقوط السريع لبغداد، ومن ثم، لم تملكا الا ان تتحدثا -وقد سقطت إحدى اكبر واعرق العواصم العربية بيد الاحتلال الامريكي- عن (بشاعة الاحتلال) و(بطولة المقاومة العراقية)، في حين كان هذا (الاحتلال البشع) -في نظر العراقيين- المخلّص الوحيد من اعتى دكتاتورية عرفها التاريخ، وكانت هذه (المقاومة البطلة) شر أيحصد ارواحهم ويهتك امنهم واستقرارهم ويعبث بطمأنينتهم.

يريد مجلس الحكم، إذن، ان ينتقم من الرأي العام العربي، من خلال أكثر أصواته علواً: قناتي (الجزيرة) و(العربية).

وهو، في ذلك، يستند الى دعم (انفعالي) قوي من الشعب العراقي، الذي باتت تفصله عن الرأي العام العربي هوة عميقة، نقمة وغضباً وشعور أبالخذلان، يعبّر عنها -بشكل كنائي ايضاً- بالنقمة على هاتين القناتين، وان كان العراقيون يتقبلون على مشاهدتهما على نحو كبير، لانهم لا يملكون خيارات اخرى، عراقية او غير عراقية، تفوقها او تبلغ مستواها في الحرفية.

لقد نجح مجلس الحكم، من خلال الضغط المستمر، في فرض تصوراته على هاتين القناتين، اللتين خضعتا له خشية (يد العقاب المؤجلة)، وهما لا تريدان مغادرة اكثر بلدان العالم جذباً لوسائل الاعلام الان. فقد نجح المجلس في منع هاتين القناتين من اظهار صور (المقاومين) وهم يهددون ويتوعدون، ونجح في التقليل من استعمال تعبير (المقاومة) واستعمال تعبير (الارهاب) بدلاً من ذلك- والتعبير ان تعبير ان ايديولوجيان-، كما نجح في التقليل من انتقاد هاتين القناتين لمجلس الحكم ووصفه بالتبعية لأمريكا.

وبازاء ذلك -بازاء موافقة العراقيين على هذا-

يحق للدولة ان تعاقب وسائل الاعلام؟

كان العقاب المستمر لقناتي (الجزيرة) و(العربية) يبدو عقاباً على (رأي) أو (حق في نقل المعلومات).

ومع انني اختلف مع هاتين القناتين في المبدأ، لا أتصور ان يصادر احد حقهما في التعبير ونقل المعلومات.

غير ان هذا السؤال البدئي يخصنا نحن الاعلاميين العراقيين قبل هاتين القناتين. فمبدأ (معاقبة وسائل الاعلام) مبدأ شديد الخطورة، إن لم ينقد في هذه اللحظة فانه يمكن ان يؤسس لتدخل مستمر للدولة في وسائل الاعلام وحق التعبير، ويمكن ان يكون شرطاً يحكم علاقة الدولة بوسائل الاعلام في العراق، التي نحلم (..نحلم في الاقل) ان تكون سلطة رابعة حقيقية، لا تهادن الدولة ولا انفعالات المجتمع، بل تكون ناقدة جذرية وتنويرية في آن معاً.

ان لحظات التأسيس مهمة جداً، فهي تتضمن عقود العلاقة وشروطها التي تحكم كل الاطراف، واذا قيض لمثل هذا التوازن الخطير ان يتحقق (دولة قوية تملك حق معاقبة وسائل الاعلام)، فان الاعلام العراقي -في المستقبل- سيكون إعلاماً مهادناً، خاضعاً لشروط الدولة واملاءاتها وتصوراتها، بما انه سيضطر الى ذلك خشية العقاب. وسيكون النقد -الذي على الاعلام ان يمارسه- نقداً سطحياً قشرياً، جزءاً من لعبة ديمقراطية زائفة، وستكون حالنا حال الدول (الديمقراطية) العربية، التي تعمل بمبدأ: دع الاعلام يعمل بحرية، دون الخطوط الحمر الموضوعة له، وهو في النهاية لن يكون سوى كلام عابر، كما الهواء، وتظل الحكومات هي هي.

والاخطر من ذلك ان يحظى عقاب الدولة لوسائل الاعلام بدعم انفعالي شعبي، على غرار حالة معاقبة مجلس الحكم لقناتي

نتصور مستقبلاً تعاقب فيه الدولة وسائل الاعلام او تقمع حرية التعبير، بموافقة الشعب او شريحة منه؟

لنلاحظ ان البنية الانفعالية للعراقيين تشكلت في اطار نظام شمولي، ذي إعلام مركزي وصوت واحد، وبالتالي لا يملك العراقيون تراثاً او خبرة كافية في الاعلام الحر، الذي ينقد الدولة ويقف في وجهها.

واذن، سيكون مستقبل الاعلام الحر في العراق مرهوناً بتحول شامل: في فكرة (الحرية)، وفي نطاق عمل الدولة، وتوازناتها مع المجتمع المدني ومؤسساته، تدخل في ذلك وسائل الاعلام. وسيكون علينا، منذ هذه اللحظة، ان نضع شرطاً واضحاً في علاقة وسائل الاعلام بالدولة، وهو: ان الدولة لا يحق لها، مطلقاً، وتحت أية ذريعة، وتحت أي ضغط، ان تتدخل في عمل وسائل الاعلام، او ان تبدي ملاحظة عليها، او ان تمارس عليها نوعاً من انواع العقاب.

لقد جعل مجلس الحكم من حفل تأسيسه في (2003/7/13) حفلا ديماغوجياً لانتقاد وسائل الاعلام. وهو يستمر في هذه اللعبة، ويزعم -في الوقت نفسه- انه يريد ان يسمح بنشوء إعلام حر في العراق.

وبالمقارنة مع دروس البلدان الحرة، نلاحظ ان حكومة الولايات المتحدة -التي تعرضت الى كارثة (9/11) على يد تنظيم (القاعدة)- لم تستطع ان تعاقب قناة (الجزيرة)، على الرغم من انها تبث باستمرار أشرطة اسامة بن لادن (التحريضية).

ولذلك، فان مجلس الحكم الانتقالي -في معاقبته المستمرة لقناتي (الجزيرة) و(العربية)- ان لم نقل انه كان يمارس شكلاً من اشكال القمع فسنقول انه لم يستطع ان يلعب دوراً ايجابياً ومتحضراً في التعامل مع وسائل الاعلام.

بودريار

وإعادة إنتاجنا عبر الصورة

علي بدر

عقب حرب الخليج الثانية مباشرة، دوت جملة بودريار الصادمة لكل المثقفين الغربيين: "إن حرب الخليج لم تحدث حقيقة ووقعا، إنما حدثت في عالم افتراضي مكون من الصور حسب".

في هذه العبارة التهمة بالانخلاع العاطفي واللامبالاة الفكرية على نحو صادم وصريح ومشوش، كان بودريار يتحدث عن العالم الافتراضي الذي يمكن للصورة أن تحدثه بموازاة العالم الحقيقي وبالتالي، فإن العالم الغربي والجمهور الغربي وحتى المثقف الغربي -وهو ما يعاني بودريار بحق- لم يشهدوا حرب الخليج حقيقة، إنما شهدوا صورة عنها. فمن أين لبودريار ولكل المثقفين الغربيين تقريباً هذا التخلل الجذري الثابت، وهذه القدرة الهائلة التي تمكنهم من الحديث عن كائن صامت، عن ساكن محلي يعيش في عالم -متصور- يقع وراء البحار؟

من أين لهم القدرة التي تتحدث وهي تخرس ذلك الساكن الذي يقطن في المستعمرات الإمبراطورية القديمة، ولم يكن سوى صورة لوغارتمية مشكلة في عالم مصنوع، صورة تمت صناعتها واستكناهها وفلترتها في عالم وهمي، صورة أنتجها الوعي الغربي والثقافة الغربية وهي تنتمي إلى خياله -من كونه صانعها والمفكر بها- أكثر مما تنتمي إلى الواقع أو الساكن المحلي ذاته.

صحيح إن جملة بودريار الصادمة أثارت اشمئزاز الكثير من المثقفين الغربيين، وخصوصا أولئك الذين لم يفهموا ما كان يقوله بالضبط، وأخص بالذكر منهم كتابا لا معين مثل لوفيفر وكريستوفر نورس وروبير مارتينو وغيرهم. وقد انحصرت نقطة سجالهم ومعالجتهم للموضوع من طرف بعيد، من طرف الرؤية الفلسفية اللاعاطفية والباردة، التي تهمل على نحو صريح وعلني ومكشوف ضحايا حرب كثيرين، ومهجرين، وقتلى، ومعاقين، ومشوهين، كما إنها تتجاوز -عن عمد أيضا- كل تلك المآسي التي ضاعت، والصرخات التي تلاشت، وكل تلك الآلام التي -من دون شك- قد حدثت. وقد كتب كريستوفر نورس كتابا في الرد على بودريار بعنوان (نظرية لا نقدية، المثقفون وحرب الخليج).

ولكن هل رأى نورس في البرامج التلفزيونية والإذاعية التي كانت تغطي هذه الحرب، وهي حرب الخليج الثانية دون شك، الآلام والمجازر التي تحدث عنها، أم رأى صورة منقولة ومحورة عنها؟ هل كان نورس يتحدث في الموضوع الذي يتحدث عنه بودريار؟ عن الصورة الافتراضية وما يمكنها أن تحدثه في التأثير على الشاعر والأذهان، أم كان يتحدث عن عالم آخر، عن عالم متجانس ومنسجم مع نفسه؟

إن الجدل الثقافي في الغرب يتركز -من وجهة نظري- في حيز ضيق ومحدد، يلتزم بشكل خاص، رؤية المثقفين الغربيين للتناقضات والتجاذبات التي تحدد علاقة المثقفين بقوى الهيمنة والسلطة، ويتجلى طبيعيا في نفورهم من الاستراتيجية القمعية التي تقودها وسائل الإعلام، بعيدا عن هذا السجال الذي يكشف عن واحدة من الممارسات النقدية التي تقع بالتجاور مع الرؤية العقلانية النقدية السياسية في الثقافة الغربية، التي لا يمكننا إنكارها مهما يحاول البعض، طبقا إلى وقائع ضعيفة ومهلهلة، إجبارنا على نبذها وإنكارها. هنالك ما هو أهم، هنالك الذين عاشوا الحرب وشهدوها حقيقة ووقعا، والذين لم يسمع أحد صوتهم، إنهم موضوع السجال، نعم، ولكنهم هامشيون، ومنبوذون، ويعيشون على نحو إشكالي ومحفوف بالمخاطر، إنهم -نسبة إلى بودريار- صورة منقولة، صورة ظلية، صورة غير موجودة أصلا، إنهم صورة مصنوعة ومركبة من عالم افتراضي، عالم لوغارتمي، قوية لأنها قادرة على إحداث التغيير، وهشة لأنها غير حقيقية أبدا، إنهم العراقيون الشكلون والمصنوعون وفقا لرؤية أمريكية، إنهم صورة وحسب، صورة صاغتها وعبرت عنها وسائل الإعلام بالنيابة، صورة آخرستها الصحافة واستنطقتها كما تشاء.

أما نسبة إلى كريستوفر نورس ولوفيفر وروبير مارتينو فإن هذا الكائن قائم وواقع فعلا، وهو موجود ولكنه (وجود في الهناك). إنه موجود بالتأكيد، ولكنه لا يستطيع تمثيل نفسه (يجب أن يمثل)، وهاهم يتحدثون عنه بالنيابة. إنهم يختزلونه في نقطة جوهرية واحدة -نسبة لهم- إنه شهد الحرب حقيقة، وعانى، وقاسى، وتشرد، وجاع، ولكن بودريار هو الذي أهمله في مداخلته ما بعد الحداثية، إنهم لا يتحدثون عنه بوصفه كائنا مكتملا، إنما هو مأساة (عالمثالثية)، وليس من حق بودريار أن يغفل، في حمى انشغاله في تحليل الصورة وهي كائنة بموازاة الواقع الفعلي، مأسيه ومعاناته فالقضية الجوهرية هنا وفي هذا السجال، هي قضية غربية بالكامل، مثيودلوجية تقريبا، وهي عاطفية أيضا، ولكنها لا تخص سوى ما يصح وما لا يصح في النقد ما بعد الحداثي.

ولكن لو عدنا بالإنصاف إلى الثابت الدلالي الذي قدمته إطروحة بودريار، نتساءل معه، هل شاهد الرأي الغربي هؤلاء الضحايا الذين يتحدث عنهم لوفيفر ونورس ومارتينو؟ هل شاهدهم فعلا وحقيقة، أم إنه شاهد عالما افتراضيا منقولا عبر تكنولوجيا سياسية وثقافية صاغته وعبرت عنه ومفصلته وفقا لمصالحها؟ وإذا كان لاتوريس ولا لوفيفر ولا مارتينو ولا أي أحد ممن يعيشون في البزبولات الكبرى في باريس ووشنطن ونيويورك وتورنتو قد شاهد لحرب حقيقة الا يعني هذا أن المتحاورين كانوا في حوار أصم، حوار الطرشان -كما يقول الفرنسيون-، الا يعني أنهم كانوا يختلفون في مرجعيات الثقافة الواحدة، وهو اختلاف السلطة التشريعية التي تمدهم بالمصطلح والجهاز المفاهيمي، لكن في حدود الثقافة ذاتها.

فنظرة فاحصة إلى الجدال تبين أن مرجعية نورس ولوفيفر ومارتينو عادت بهم إلى النقد العقلاني الجذري، وهو نقد كل ما يتعلق بانحراف إنسانوية العلم الغربي وعصر الأنوار الغربي والحداثة الغربية وكل ما يعلق بها من بربرية وسوء استخدام سلطة ووحشية على حد تعبير كارل بوبر، أما مرجعية بودريار فهي تكمن في النقد ما بعد الحداثي، وتتمثل بإطروحة فرانسوا ليوتار الذي يشدد على التكذيب المستمر لكل ما يحيط بنا من سرديات أو من وقائع سردية، التاريخ، القوانين، الفن، الحياة، المؤسسات، الدين، بل حتى الصورة المنقولة لنا أيضا.

إذن كان بودريار محقا في إطروحته حينما رأى أن الحرب لم تحدث نسبة له، وقد تكون قد حدثت نسبة للذين عاشوها في العراق، في مستعمرات الإمبراطورية القديمة، في الـ(هناك)، ولكنها لم تحدث لا له، ولا لنورس، ولا للوفيفر، ويكاد يجزم بأنها لم تحدث لكل الجالسين (هنا)، في مركز الإمبراطورية القديمة، وينظرون إلى الصورة القادمة من الـ(هناك)، أما نسبة للفريق المقابل، فإن هذا الكلام يتجاهل الضحايا في الـ(هناك)، وهذا التجاهل يسيء للعلم الغربي والحداثة الغربية والإنسانوية الغربية أيضا.

وسواء جاءت الحاجة إلى السجال من هذا الطرف أو من ذاك، علينا أن نعترف بأن هنالك على الدوام إخراسا للضحية، وتكميما، وإغفالا لها حتى من قبل الذين دافعوا عنها، فإذا كانت التكنولوجيا الإعلامية قد نجحت في صناعة صورة طيعة ومروضة ومراقبة فهل استطاعت هذه الحاجيات أن تنأى هي الأخرى عن التأثيرات المزعجة، وذلك بسماع صوت الضحية بدلا من وجودها في الـ(هناك).

لقد كان هنالك على الدوام حرص كبير من المثقف الغربي على استخدامه بوصفه (موضوعا) -نسبة إلى كريستوفر نورس- يمارس عليه إنسانويته التي يدافع عنها، وبدفاعه عن الضحية فإنه يدافع عن الحداثة الغربية، وعن عصر الأنوار الغربي. وهنالك حرص كبير على استخدامه بوصفه (صورة افتراضية) -نسبة إلى بودريار يعبر من خلالها عن موقفه من النسيج السردي الافتراضي الذي تحيط به السلطات السياسية مجتمعاتها، ويكذب على نحو آزلي ومستمر هذه السذاجة واللاعقلانية الجماعية التي علمت عليها الحداثة وآمن بها، ومؤداها، طالما أن في الأمر صورة، فهم إذن أمام واقع حقيقي.

كل هذه الحاجيات تلتقي بتقنية ستراتيجية واحدة، وهي جعلنا مادة للقراءة، والدرس، والتحليل، والتصوير، لا شخصا ينبغي الإصغاء إليه، أو سماع صوته، إننا جسد يعنى، ولسنا جسدا مولدا للمعاني فأين نحن من السجال، لا بوصفنا موضوعا أهمله التمثيل الثقافي الغربي، إنما رؤية حقيقية، وموجودة، وإشكالية، ومتحدثة، وفاعلة في النقاش والسجال، هل تعاد علينا نظريات لحواسة الشرقية والدولة الشرقية والاستبداد الشرقي من الغرب هذه المرة، ومن النظور النظري وهنا تبدو الخطورة أكبر بكثير، لا لأنها هيمنة ثقافية وتاريخية متواطئة مع التعميمات الجغرافية والسياسية ومناطق النفوذ، إنما لأن اهتمامات النظرية هنا متواطئة بالضرورة مع الدور الهيمني الذي يلعبه الغرب بوصفه قوة وحتى في مجال لغة النظرية نتساءل، هل الأجهزة المفاهيمية هي متاورة من متاورات النخب الثقافية البزبولية المتميزة ثقافيا، وهل خطابها عن الآخر يسند ويعزز، بل يقوي، معادلة السلطة - المعرفة الخاص بها إن هذا الجدال يحسم من الضربة الأولى الفكرة التي طرحتها غياتري سبيفاك، في كتابها التميز (نقد العقل ما بعد الكولونيالي) عن المهمشين، الذين حتى إذا تكلموا لا يصغي إليهم أحد.

فكيف إذا صوروا عبر الصور الافتراضية؟

لقد أدرك الغرب، بمساعدة عدد كبير من الخبراء العسكريين، كيف أن التضليل المزوق بالأغطية المالية للواقعية كان مخصصا، بفضل عملية تشويش رهيبة، للتهيئة لعملية التلاعب لما أطلق عليه (حرب الصور)، التي انتهت إلى آلاف الضحايا.

مما لا شك فيه، نحن إزاء مدلولات مختلفة، وإن الرسالة شفاهية كانت أم كتابية، مختلفة بالإيصال عن الصورة، وبالتالي فإن الحامل سيغير الدلال بالتأكيد. أنا أقصد استجابة القارئ لحظة تلقي المعنى، حيث يتأثر بسبب انتاج المعنى، فليست الأداة مادة انتاج، إنما هي مادة تغيير وإعادة معنى فالكتابة تشعر أمامها بالتضخم على العكس من الصورة التي تشعرنا بالتضاؤل إن التمثيلات الحركية التي يتولد معناها في الصورة قادرة على اجتياحنا ومحونا، إنها ليست اكتساحا للثقافة الشفاهية أو الكتابية، إنما هي اكتساح على قولبة مفاهيمنا الأساسية وتغييرها، إن (الفكرة) التي قرأنا عنها وعرفناها بإمكان الصورة الافتراضية أن تهدمها إن حضارة الصورة حضارة جديدة، لم يعد الكلام فيها مطابقة بين الفكر والوجود، ولم تعد الكتابة فيها فكرة أخلاقية تتواصل الإنسانية بها مع ذاتها، وتتحدد بها ككائن عاقل، إن الصورة بإمكانها أن تحول كلا من الكتابة والكلام إلى مظهر عياني، وتحول الوجود إلى صورة، والخيال إلى مدرك محسوس، ومن يملك هذه القوة هو الذي يملك الحقيقة. فإذا كانت الصورة هي تحويل القوة والفعل إلى معنى، فيحق لنا أن نتساءل أيضا، هل العالم الغربي الذي نراه ونتعرف عليه هو موجود أيضا، أم صورة افتراضية تصنعها قوى السلطة والهيمنة؟ لنكن واقعيين،

إن للصورة المنقولة عن العالم الغربي حضور أكليا، غير أن غالبيتنا لا يعرف قراءتها، وبالتالي أصبحت هي رهان السلطة الكبير عند من بمقدورهم التحكم بانتاجها وتوزيعها وفي هذا السياق الثقافي، نحن إزاء الصورة الافتراضية التي لا تحتاج لوجودها إلى مرجع سابق في العالم الحسوس، إنها صورة تسخر من سذاجتنا وأميتنا، وهي تضاهي، بل تتجاوز، تلك التي ألفناها، إنها ثمرة من آلاف الساعات على الحلسوب، وإن حقيقتها هي نتاج لرغبة الاعتقاد بأن للصورة قدرة على إحداث أثر أكبر من أثر الواقع.

نعم نحن هنا في النفي التأريخي، وقد تعبر عنا الصورة الافتراضية على نحو آخر نحن هنا خارج التقنيات الحديثة، وبعيداً عن عقلنة أنظمة الانتاج والإدارة، غير إننا العلامة الفارقة التي تسم المجتمعات الحديثة، والصورة المقلوبة لهذه الوحشية الشاملة والفضائع الكبرى، نحن صورة من صور الشروع العقلاني في الغرب، صورة للاستلاب والتشظي، ونوع من العاب العنف إن مجال اللعب في حياتنا هو بيد من يملكون الهيمنة، والسلطة، والقوة، والمعرفة إننا كولاجات متنافرة، حيث تمحو كل العلامات الفارقة علامتنا، بينما يظهر الطابع الغربي لإنتاج الصورة نحن هنا، تحت سيطرة هذا الكائن البصري المنفلت من كل كابح، حيث يمكنه قولبتنا، ومن ثم تصديرنا، إننا صورة متوحشة تقولبنا الشاشة وتنمطنا، إنها تطلع إلينا كي تفكك أوصال جسدنا الغرائبي، والفنطازي، جسدنا المنغلق والمتمحور على ذاته، والغرب هو الفنان التقني الذي يقوم بإعادة جمع أشلائنا، وتأليفنا، ويلغي العلامات الفارقة التي تميزنا.